فكل منهم يناطح الآخرين ليعلى مذهبه ، ويظهر هو على الساحة .

بعد ذلك يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن الذين يكفرون بالله ، أو يتمردون على منهج الله يظلون هكذا أسْرى هذه السلطة الزمنية ، فإذا أصابتهم هزة أو بلاء لا تقوى أسبابهم على دفعه لم يجدوا ملجأ إلا الله ، فقال سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾

الضر : هو الشيء الذي نتضرر منه ، ولا تستطيبه النفس ، فإنْ أصابهم الضر وأسبابهم لا تفي بالخلاص منه ﴿ دعوا ربهم منيبين إليه .. (٣٣) ﴾ [الروم] أي : رجعوا إليه سبحانه ، والآن علموا أن لهم رباً يلجئون إليه ، وهذا يُذكّرنا بما قاله العرب عندما فتر الوحي عن رسول الله ، فسرَّهم ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قلاه[1] . سبحان الله الآن عرفتم أن لمحمد رباً .

وقلنا : إن ساعة الضيق والمحنة لا يكْذب الإنسان نفسه ولا يخدعها ، وسبق أنْ ذكرنا قصة حلاق الصحة الذي كان يحلّ محلّ الطبيب الآن ، فلما أنشئت كليات للطب وخرَّجت أطباء ، وذهب أحدهم إلى قرية الحلاق ، فأخذ الحلاق يهاجمه ويدَّعي أنه حديث لا خبرةَ له ، فلما مرض ابنه وأحسَّ بالخطر أخذه خُفْية في ظلام الليل ، وذهب به إلى الطبيب ، لماذا ؟ لأنه لن يغشَّ نفسه في هذه اللحظة .

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٤/٥٢٢) من رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس سمع جندبا قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودَّع محمداً ربُّه . فأنزل الله تعالى : ﴿ والضحى (١) والليل إذا سجى (٢) ما ودعك ربك وما قلى (٣) ﴾ [الضحى] .

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [الروم]

أي : يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله .

وحين نتأمل هذه المسألة نجد أن القرآن عرضها مرة بصيغة الإفراد ، فقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا .. (٨)﴾ [الزمر]

وقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢)﴾ [يونس]

لكن الكلام عن الإنسان المفرد لا يكفي لإثبات الظاهرة ؛ لأن الإنسان الواحد يمكن أن يستذل أمام ربه ، ويعود إليه بعد أنْ تجرأ على معصيته ، يكون ذلك بينه وبين نفسه ، فلا يفضح نفسه أمام الناس ، فأراد سبحانه أنْ يثبت هذه المسألة عند الناس جميعاً ؛ ليفضح بعضهم بعضاً ، فذكر هنا ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ .. (٣٣)﴾ [الروم]

وفي آية أخرى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾ [العنكبوت]

فجاء بصيغة الجمع ليفضح الكافرين بعضهم أمام بعض ، وقد يكون في هؤلاء الداعين مَنْ كان يُؤلِّبهم على الله ، ويصرفهم عن الإيمان به ، وها هو الآن يدعو ويتضرع ، وحين يُفتضح أمرهم يكون ذلك أدْعى لاستقامتهم وأدعى ألاَّ يتكبر أحد على أحد .

لذلك قلنا في ميزات الصلاة أنها تُسوِّي بين الناس ، فيجلس الرجل العادي بجوار مَنْ لم يكن يُؤمِّل أنْ يجلس بجواره ، ويجده خاضعاً معه مطاوعاً للإمام .. الخ ففي الصلاة ، الجميع سواء ، والجميع منتفع بهذه المساواة ، آخذ منها عبرة ، فلا يتكبر بعدها أحد على أحد .

ونقف هنا عند ﴿مَسَّ .. (٣٣)﴾ [الروم] وهو اللمس الخفيف ، فالمعنى مسَّهم اليسير من الضر ، ومع ذلك ضاقتْ أسبابهم عن دفعه ، وضَجُّوا يطلبون الغَوْث .

وكلمة ﴿أَذَاقَهُم .. (٣٣)﴾ [الروم] الذوق حاسة من حواس الإنسان يُحسُّ بها الطعام عند مروره على منطقة معينة فى اللسان ، فإذا ما تجاوز الطعامُ هذه المنطقةَ لا يشعر الإنسان بطعمه .

إذن : فلذَّة الطعام مقصورة على هذه المنطقة فى الفم ، والتذوق أقوى انفعالات النفس فى استقبال المذاق ؛ لذلك يقولون فى الأمثال (اللى يفوت من اللسان بقى نتان) .

وتأمل ، كيف استعمل الحق سبحانه الإذاقة فى مجال العذاب حين ضرب لنا هذا المثل : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

فذكر الإذاقة مع أن اللباسَ يستوعب الجسم كله ، وكذلك الجوع والخوف ، فكل منهما إحساس يستولى على الإنسان كله ، ومع ذلك قال ﴿فَأَذَاقَهَا .. (١١٢)﴾ [النحل] لأن الإذاقة أقوى أنواع الإدراك .

وكلمة ﴿مِّنْهُ .. (٣٣)﴾ [الروم] أى : من الله تعالى ، يعنى بلا أسباب ، أو ﴿أَذَاقَهُم مِّنْهُ .. (٣٣)﴾ [الروم] أى : بدَّل الضر برحمة ، وخلَّصهم من الضُّرِّ برحمة . كما أن الإذاقة وإنْ دلَّتْ على الانفعال الشديد للمستقبل ، فإنها أيضاً تدلُّ على التناول الخفيف بلُطْف ، كما

---

(١) رَغد العيش : اتسع وطاب . وقوله : ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥)﴾ [البقرة] أى أكلاً طيباً موسعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

تقول : ذُقْتُ الطعـام ، أو تـقـول : والله ما ذُقْتُ لفلان طعـاماً يعنى : ما أكلتُ عنده من باب أَوْلى .

لذلك الحق سبحانه وتعالى عبر عن الرحمة هنا بالإذاقة ؛ لأن رحمة الدنيا لا تستوعب كل رحمة الله ، فالقليل منها فى الدنيا ، وجُلُّها فى الآخرة .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [الروم] ، أما فى الآية الأخرى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾ [العنكبوت]

فلماذا قال فى الأولى ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم .. (٣٣) ﴾ [الروم] وفى الأخرى : ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾ [العنكبوت] فلم يستثن منهم أحداً ؟

قالوا : لأن الآية الأولى تتكلم عن الذين دَعَوا الله فى البَرِّ ، والناس فى البر عادة ما يكونون مختلفين ، فيهم الصالح والطالح ، والمطيع والعاصى ، فهم مختلفون فى رَدِّ الفعل ، فالمؤمنون لما عاينوا النجاة ورحمة الله قالوا : الحمد لله الذى نجانا ، أما المشركون فعادوا إلى كُفْرهم وعنادهم .

أما الآية الأخرى فتتكلم عن الذين دَعَوا الله فى البحر ، وعادة ما نرى الذين يركبون البحر على شاكلة واحدة ، وهم لا يركبونه كوسيلة للسفر ، إنما للترف ، كما نرى البعض يتخذ لنفسه يختاً مثلاً أو عوَّامة يجمع فيها أتباعه ومَنْ هم على شاكلته ، ولا بُدَّ أنهم يجتمعون على شيء يحبونه ، فهم على مذهب واحد ، وطريقة واحدة ، وسلوك واحد .

إذن : ما دام هؤلاء كانوا فى البحر فلا بُدَّ أنهم كانوا مجرمين

عتاة ، وكانوا سواسية في الشرك وفي التخلي عن الله ، بمجرد أنْ أمنوا الخطر ، لذلك استخدم الأسلوب هنا ﴿إِذَا.. ﴿٣٣﴾﴾ [الروم] الفجائية واستخدمه في آية أخرى ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت] فبعد أنْ أنجاهم الله أسرعوا العودة إلى ما كانوا عليه من الشرك .

ففي هذه الآية الحق سبحانه يُبيّن لنا حقيقة الإنسان ، ومدى حرصه على جلْب الخير لنفسه ، فإنْ كان الخير الذي أعدَّه الله له يُبطره ويُطغيه كما قال سبحانه ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق]

فإنه لا مناصَ له من أنْ يرجع إلى ربه حين ينفض الله عنه كُلَّ أسباب الخير ، ويهدده في نفسه وفي ذاته التي لم تنتفع بآيات الله في الكون ، فتظل في حضانة الله ، فيأتي له بالضُّر الذي ينفض عنه كلّ أسباب البطَر والأشَر والاستعلاء .

ولكنه لا يسلم نفسه للضر الذي يهلكه ، بل عندما يتنبه أن له رباً يلجأ إليه ، ولا يجد مفزعاً في الكون إلا هو ؛ لأنه يعلم جيداً أن الذين أخذوه من الله فآمن بهم وكفر بالله لن ينفعوه بشيء ؛ لأنه عبد من دون الله آلهة لا تضر ولا تنفع .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء] فهؤلاء الذين تدعونهم لا يعرفون طريقكم ، وإنْ عرفوا لا يملكون أنْ يصلوا إليكم ، أما أنا فربكم الأعلم بكم ، والقادر على إغاثتكم ، وإنزال الرحمة بكم .

إذن : فهؤلاء المشركون أشركوا بالله في وقت الرخاء ، أما في وقت الضيق والكرب فلن يخدع أحدهم نفسه ، ولن يغشّها لن يقول : يا هُبَل . لأنه يعلم أن هُبَلَ لا يسمعه ولا يجيبه ، فلا ينفعه الآن ،

ولا ينجيه إلا الإله الحق ، فقد ألجأته الضرورة أن يعترف به ويدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يتبادر إلى الذهن أن اللام في ﴿ لِيَكْفُرُوا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم] لام التعليل ، أو لام السببية التي يكون ما بعدها سبباً لما قبلها ، كما تقول : ذاكر لتنجح ، وكذلك في الشرط والجواب : إنْ تذاكر تنجح فعلّة المذاكرة النجاح .

فهل يستقيم المعنى هنا على هذا الفهم ؟ وهل نجاهم الله وأذاقهم الرحمة ليكفروا به ؟

نقول : ليس الشرط سبباً في مجيء الجواب كما يفهم السطحيون في اللغة ، بل الجواب هو السبب في الشرط ، لكنهم لم يُفرِّقوا بين سبب دافع وسبب واقع ، فالتلميذ يذاكر لأن النجاح ورد بباله ، وتراءتْ له آثاره الطيبة أولاً فدفعتْه للمذاكرة .

إذن : فالجواب سبب في الشرط أي : سبب دافع إليه ، فإذا أردتَ أن يكون واقعاً فقدِّم الشرط ليجيء الجواب .

وكما تقول : ركبتُ السيارة لأذهب إلى الإسكندرية ، فركوب السيارة ليس سبب ذهابك للإسكندرية : لأنك أردتَ أولاً الذهاب فركبتَ السيارة ، فلما ركبتها وصلتَ بالفعل . إذن : نقول : الشرط سبب للجواب دافعاً يدفع إليه ، والجواب سبب للشرط واقعاً .

فهنا نجّاهم الله من الكرب ، وأذاقهم رحمته لا ليكفروا به ، إنما ليُبيِّن لهم أنه لا مفزعَ لهم إلا إليه ، فيتمسكون به سبحانه ، فيؤمن منهم الكافر ، ويزداد مؤمنهم إيماناً ، لكن جاء ردُّ الفعل منهم على خلاف ذلك ، لقد كفروا بالله ؛ لذلك يسمون هذه اللام لام العاقبة أي : أن كفرهم عاقبة النجاة والرحمة .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ لو ضممتَ طفلاً مسكيناً إلى حضانتك وربَّيته أحسن تربية ، فلما شبَّ وكَبِر تنكّر لك ، واعتدى عليك ، فقلت للناس : ربَّيته ليعتدى عليَّ ، والمعنى : ربّيته ليحترمني ويحبنى ، لكن جاءت النتيجة والعاقبة خلاف ذلك ، وهذا يدل على فساد التقدير عند الفاعل الذى ربَّى ، وعلى لُؤْم وفساد طبع الذى رُبِّى .

فالأسلوب هنا ﴿ لِيَكْفُرُوا .. (٣٤) ﴾ [الروم] يحمل معنى التقريع ؛ لأن ما بعد لام العاقبة ليس هو العلة الحقيقية لما قبلها ، إنما العلة الحقيقية لما قبلها هو المقابل لما بعد اللام : أذاقهم الرحمة ، ونجاهم ليؤمنوا ، أو ليزدادوا إيماناً ، فما كان منهم إلا أنْ كفروا .

ولهذه المسألة نظائر كثيرة في القرآن ، كقوله تعالى فى قصة موسى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨) ﴾ [القصص]

ومعلوم أنهم التقطوه ليكون لهم قُرَّة عين ، ولو كانوا يعلمون هذه العاقبة لأغرقوه أو قتلوه كما قتلوا غيره من أطفال بني إسرائيل ، وكما يقولون في الأمثال (بيربى خنّاقه) .

فهذا دليل على غفلة الملتقط ، وعلى غبائه أيضاً . فكيف وهو يُقتِّل الأولاد فى هذا الوقت بالذات لا يشكّ فى ولد جاء فى تابوت مُلْقىً فى البحر ؟ أليس فى هذا دلالة على أن أهله يريدون نجاته من

القتل ؟ لكن كما قال سبحانه : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فأنت تُقتِّل في الأطفال لرؤيا أخبرك بها العرافون ، فسيأتي مَنْ تخاف منه إلى بابك ، وستأخذه وتُربِّيه في حضنك ، وسيكون زوال مُلْكك على يديه ، فلا تظن أنك تمكر على الله .

والقصة تدل على خيبة فرعون وخيبة العرافين ، فإذا كنتَ قد صدَّقْتَ العرافين فيما أخبروك به فما جدوى قَتْل الأطفال ، وأنت لن تدرك مَنْ سيكون زوال مُلْكك على يديه ولن تتمكن منه ؟ فلماذا تحتاط إذن ؟

لذلك يجب أن يكون تفكير البشر في إطار أن فوق البشر رباً ، والرب يكلف العدو ليأتي بعدو له ليقضي عليه ، وهو سبحانه خير الماكرين ، والمكْر الحق أن يكون خُفْية بحيث لا يشعر به الممكور به .

وقد وصل بنا الحال في القرن العشرين أن نقول : الصراحة مكْر القرن العشرين . يعني : مَنْ أراد أنْ يمكر فليقُل الحق وليكُنْ صريحاً ؛ لأننا أصبحنا في زمن قلَّتْ فيه الصراحة وقول الحق ، لدرجة أنك حين تُحدِّث الناس بالحق يشكُّون فيك ، ويستبعدون أن يكون قولك هو الحق ، كالذي قال لجماعة يطلبونه ليقتلوه : أنا سأذهب إلى المكان الفلاني في الوقت الفلاني فقالوا : إنه يُضلِّلنا ويمكر بنا رغم أنه صادق فيما أخبرهم به .

وبعد أنْ تربَّى موسى - عليه السلام - في بيت فرعون ، ثم كلَّفه

---

(١) أي : أن الله يملك أن يصرف قلب الإنسان ويقْهَر نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه وإنما الله هو الذي يملكه . [القاموس القويم ١/ ١٧٩] .

ربه بالرسالة ، وذهب إلى فرعون يدعوه إلى الله قال له : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء]

نعم ربيتني وليداً ، لكن الذي رباني ورباك هو الذي بعثني إليك ، فأنا أبرّ المربي الأعلى قبل أنْ أبرّ بك ، وفي هذا إشارة إلى أن عناية الله هي الأصل في تربية مَنْ تحب ، فإياك أنْ تقول: ربيْتُ ولدي حتى صار كذا وكذا ، بل عليك بالأخْذ بأسباب التربية ، وتترك المربي الأعلى هو الذي يُربِّي على الحقيقة .

وهذا المعنى فطن إليه الشاعر ، فقال :

إذَا لَمْ تُصادفْ في بَنِيكَ عنَايةٌ ... فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِي وخَابَ المؤمِّلُ
فَمُوسَى الذي ربَّاه جِبْرِيلُ كَافِرٌ ... ومُوسَى الذي ربَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرسَلُ

ثم يقول سبحانه : ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الروم] لأنه كفر ليتمتع بكفره في الدنيا ؛ لأن للإيمان مطلوبات صعبة تشق على النفس ، فيأمرك بالشيء الثقيل على نفسك ، وينهاك عن الشيء المحبب إليها ، أما الأصنام التي عبدوها من دون الله وغيرها من الآلهة فلا مطلوبَ لها ولا منهج .

لكنه متاع الحياة الدنيا ومتاع الدنيا قليل ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك مدة بقائك فيها فلا تقلْ إنها ممتدة من آدم إلى قيام الساعة ، فهذا العمر الطويل لا يعنيك في شيء ، الذي يعنيك عمرك أنت .

ومهما كان عمر الإنسان في الدنيا فهو قصير وتمتُّعه بها قليل ، ثم إن هذا العمر القصير مظنون غير متُيقن ، فربما داهمك الموت في أيِّ لحظة ، ومَنْ مات قامت قيامته[1] .

---

(١) رواه الديلمي في مسنده (١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢٦١٨) : « روى عن أنس : أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه في غنى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه في ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة ، إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته ، يرى ماله من خير وشر » .

لذلك أبهم الحق - سبحانه وتعالى - الموت ، ونثر أزمانه في الخَلْق : فهذا يموت قبل أن يولد ، وهذا يموت طفلاً ، وهذا يموت شاباً .. الخ وإبهام الموت سبباً وموعداً ومكاناً هو عَيْن البيان : لأنه أصبح شاخصاً أمام كل منَّا ينتظره في أيِّ لحظة ، فيستعد له .

ونلحظ هنا أن الأسلوب القرآني عطف فعل الأمر ﴿فَتَمَتَّعُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] على الفعل المضارع ﴿لِيَكْفُرُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] ، وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦)﴾ [العنكبوت] فجعل التمتُّع ليس خاضعاً لفعل الأمر ، إنما للعلة : ليكفروا وليتمتعوا .

لذلك اختلفوا حول هذه اللام : أهي للأمر أم للتعليل ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾ [الروم] جاءت بعد ﴿فَتَمَتَّعُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] وهذه جاءت معطوفة على ﴿لِيَكْفُرُوا .... (٦٦)﴾ [العنكبوت] فكأنه قال : اكفروا وتمتعوا ، لكن ستعلمون عاقبة ذلك .

والذي جعلهم يقولون عن اللام هنا لام التعليل أنها مكسورة ، أما لام الأمر فساكنة ، فلما رأوا اللام مكسورة قالوا لام التعليل ، أما الذي فهم المعنى منهم فقال : ما دام السياق عطف فعل الأمر فتمتعوا على المضارع المتصل باللام ، فاللام للأمر أيضاً ، لأنه عطف عليها فعل الأمر ، وهو هنا للتهديد .

لكن ، لماذا كُسِرَتْ والقاعدة أنها ساكنة ؟ قال أحد النحاة : لام الأمر ساكنة ، ويجوز أنْ تُكسَر ، واستشهد بهذه الآية ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦)﴾ [العنكبوت]

ونقول لمن يقول : إنها لام التعليل : إذا سمعت لام التعليل فاعلم أنها تعني لام العاقبة ؛ لأن الكفر والتمتّع لم يكُنْ سبباً في إذاقة الرحمة .

ويا مَنْ تقول لام الأمر سيقولون لك : لماذا كُسرت ؟ وفي القرآن شواهد كثيرة تدل على أنها قد تُكسر ، واقرأ قوله تعالى : ﴿وَأَذِّن فِي

النَّاس بالْحَجّ يأْتوك رجالاً وعلى كُلّ ضامرٍ يأْتين من كُلّ فجّ عميق (٢٧) ليشْهدُوا منافع لهم .. (٢٨)﴾ [الحج] فاللام هنا مكسورة لأنها لام التعليل.

ثم قال بعدها: ﴿ثُمّ ليقْضُوا تفثهُمْ وليُوفُوا نُذُورهُمْ وليطّوّفُوا بالْبيْت الْعتيق (٢٩)﴾ [الحج] فاللام سُكِّنَتْ لأنها لام الأمر.

وفي آية أخرى جُمعت اللامان: ﴿ليُنفقْ ذُو سعةٍ مّن سعته .. (٧)﴾ [الطلاق] فجاءتْ لام الأمر مكسورة؛ لأنها في أول الجملة، ولا يُبتدأ في اللغة بساكن، فحُرِّكت بالكسر للتخلص من السكون، ثم يقول سبحانه: ﴿ومن قُدر عليْه رزْقُهُ فلْيُنفقْ ممّا آتاهُ اللّهُ .. (٧)﴾ [الطلاق] فجاءت لام الأمر ساكنة؛ لأنها واقعة في وسط الكلام.

لذلك يجب أن يتنبه إلى هذه المسألة كُتّاب المصحف، وأن يعلموا أن كلام الله غالب، فقد فات أصحاب رسم المصحف أنه مبنيٌّ من أوله إلى آخره على الوصل، حتى في آخر آيات سورة الناس وأول الفاتحة تقول ﴿الّذي يُوسْوسُ في صُدُور النّاس من الْجنّة والنّاس بسْم اللّه الرّحْمن الرّحيم ...﴾.

فآخرُ القرآن موصول بأوله، حتى لا ينتهي أبداً. وعليه فلا ترسم ﴿ليُنفقْ ذُو سعةٍ مّن سعته .. (٧)﴾ [الطلاق] بالكسر، إنما بالسكون، لأنها موصولة بما قبلها.

وكلمة ﴿فسوْف تعْلمُون (٣٤)﴾ [الروم] تدلُّ على التراخي واستيعاب كل المستقبل، سواء أكان قريباً أم بعيداً، فهي احتياط لمن سيموت بعد الخطاب مباشرة، أو سيموت بعده بوقت طويل.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) ﴾

كلمة (أم) لا تأتي بداية ؛ لأنها أداة تفيد التخيير بين أمريْن ، كما تقول : أجاء زيد أم عمرو ؟ فلا بُدَّ أنْ تأتي بين متقابلين ، والتقدير : أهُمْ اتبعوا أهواءهم ، أم عندهم كتابٌ أُنزل إليهم فهو حجة لهم على الشرك ؟ وحيث إنهم لم ينزل عليهم كتاب يكون حُجَّةً لهم فلم يَبْقَ إلا الاختيار الآخر أنهم اتبعوا أهواءهم .

والفعل ﴿ أَنزَلْنَا .. (٣٥) ﴾ [الروم] الإنزال يقتضي عُلُوَّ المنزِّل منه ، وأن المنزَّلَ عليه أدْنى ، فالإنزال من عُلُو الربوبية إلى ذُلِّ العبودية . ونحن لم نَرَ الإنزال ، إنما الذي تلقَّي القرآن أول مرة وباشر الوحي هو الذي رآه وأخبرنا به .

والأصل في الإنزال أن يكون من الله تعالى ، وحين ينزل الله علينا إنما ليعطينا سبحانه شيئاً من هذا العُلُو ، سواء أكان العُلُو معنوياً ؛ لأن الله سبحانه ليس له مكان ، أم عُلُواً حسِّياً كما في ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

والسلطان : من التسلُّط ، وهي تدلُّ على القوة ، سواء أكانت قوة الحجة والبرهان ، فمَنْ أقنعك بالحجة والبرهان فهو قويٌّ عليك ، أو قوة قهر وإجبار كمَنْ يُرغمك على فعل شيء وأنت كاره ، أما سلطان الحجة فتفعل وأنت راضٍ ومقتنع .

وإذا استقرأنا كلمة سلطان نجد أن الله تعالى عرضها لنا في

موقف إبليس في الآخرة ، حين يتبرأ من الذين اتبعوه : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

أي : لم يكُنْ لي عليكم سلطان حجة وإقناع أستحوذ به على قلوبكم ، ولم يكُنْ لي عليكم سلطان قهر ، فأقهر به قوالبكم ، والحقيقة أنكم كنتم (على تشويرة) مجرد أنْ دعوتكم جئتم مُسرعين ، وأطعتم مختارين .

وهذا المعنى يُفسِّر لنا شيئاً في القرآن خاض الناس فيه طويلاً - عن خُبْث نية أو عن صدق نية - هذا في قوله تعالى مرة لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] ومرة أخرى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف]

فالأولى تدل على سُلْطان القهر ، كأنك كنتَ تريد أنْ تسجد فجاء مَنْ منعك قهراً عن السجود ، والأخرى تدل على سلطان الحجة والإقناع ، فلم تسجد وأنت راضٍ ومقتنع بعدم السجود[1] .

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)﴾ [الروم] أي : ينطق بما كانوا به يشركون ، يقول : اعملوا كذا وكذا ، فجاء هذا على وَفْق هواهم .

(١) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » (ص ١٢٧) طبعة دار الصابوني . « قوله ﴿أَلَّا تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] قال ذلك بزيادة « لا » كما في قوله تعالى : ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ .. (٢٩)﴾ [الحديد] وقال في « ص » بحذفها ، وهو الأصل ، فزيادتها هنا لتأكيد معنى النفي في « منعك » ، أو : لتضمين « منعك » معنى « حملك » ، وهي على الثاني ليست زائدة في المعنى » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

جميل أنْ يفرح الناس ، وأنْ يستبشروا برحمة الله ، لكن ما لهم إذا أصابتهم سيئة بما قدَّمتْ أيديهم يقنطون ؟ فمُجرى الرحمة هو مُجرى السيئة ، لكنهم فرحوا في الأولى لأنها نافعة في نظرهم ، وقنطوا في الأخرى ؛ لأنها غير نافعة في نظرهم ، وكان عليهم أنْ يعلموا أن هذه وتلك من الله ، وأن له سبحانه حكمةً في الرحمة وحكمةً في المصيبة أيضاً .

إذن : أنتم نظرتم إلى شيء وغفلتم عن شيء ، نظرتُم إلى ما وُجد من الرحمة وما وُجد من المصيبة ، ولم تنظروا إلى مَنْ أوجد الرحمةَ ، ومَنْ أوجد المصيبة ، ولو ربطتم وجود الرحمة أو المصيبة بمَنْ فعلها لَعلمتُم أنه حكيم في هذه وفي تلك ، فآفة الناس أنْ يفصلوا بين الأقدار ومُقدِّرها ، إذن : ينبغي ألاَّ تنظروا إلى ذات الواقع ، إنما إلى مَنْ أوقع هذا الواقع .

فلو دخل عليك ولدك يبكي ؛ لأن شخصاً ضربه ، فأول شيء تبادر به : مَنْ فعل بك هذا ؟ فإنْ قال لك : فلان تقول : نعم إنه يكرهنا ويريد إيذاءنا .. الخ فإنْ قال لك : عمي ضربني فإنك تقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً أغضبه ، أو أخطأتَ في شيء فعاقبك عليه .

إذن : لم تنظر إلى الواقع في ذاته ، إنما ربطت بينه وبين مَنْ أوقعه ، فإنْ كان من العدو فلا بُدَّ أنه يريد شراً ، وإنْ كان من الحبيب فلا بُدَّ أنه يريد بك خيراً .

ومكذا ينبغي أن نربط بين الموجود ومَنْ أوجده ، فإنْ كان الذي أوجد الواقع رَبٌّ فيجب أنْ تتأمل الحكمة ، ولن نتحدث عن الرحمة ، لأن النفع ظاهر فيها للجميع . لكن تعال نسأل عن المصيبة التي تُحزن الناس ، فيقنطوا وييأسوا بسببها .

ونقول : لو نظرتَ إلى مَنْ أنزلها بك لارتاح بالك ، واطمأنتْ نفسك ، فالمصيبة تعني الشيء الذي يصيبك ، خيراً كان أم شراً ، ألاَ ترى قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ .. (٧٩) ﴾ [النساء]

فالمصيبة لا تُذَمُّ في ذاتها ، إنما بالنتيجة منها ، وكلمة أصاب في الحسنة وفي السيئة تدلُّ على أن سهمها أُطلق عليك ، وعمرها مقدار وصولها إليك ، فهي لا بُدَّ صائبتك ، لنْ تتخلَّف عنك أبداً ، ولن تُخطئك ؛ لأن الذي أطلقها إله ورب حكيم ، فإنْ كانت حسنة فسوف تأتيك فلا تُتعب نفسك ، ولا تُزاحم الناس عليها ، وإنْ كانت مصيبة فإياك أنْ تقول : أحتاط لها لأدفعها عن نفسي ؛ لأنه لا مهربَ لك منها .

ثم لماذا تقنط وتيأس إنْ أصابتْك مصيبة ؟ لماذا لا تنتظر وتتأمل ، لعل لها حكمة ، ولعل من ورائها خيراً لا تعلمه الآن ، وربما كانت ضائقة سوف يكون لها فرج قريب .

ألم تقرأ : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

أتذكرون حادث عمارة الموت وقد طردوا منها البواب وأسرته ، وجعلوا منها قضية في المحكمة ، وبعد أن انهارتْ العمارة ، وتبيَّن للبواب وأسرته أن ما ظنوه شراً ومصيبة كان هو عيْن الخير .

إذن : لا تقنط من ضرٌّ أصابك ، واعلم أن الذى أجراه عليك ربك ، وأن له حكمة فانتظر حتى تتكشف لك ، ولا يقنط إلا مَنْ ليس له ربٌّ يلجأ إليه .

ثم تعالَ نناقشك فى المصيبة التى قَنَط من أجلها : ألكَ دَخْلٌ فيها ؟ أم ليس لك دَخْل ؟ إنْ كان لك دَخْل فيها كالتلميذ الذى أهمل دروسه فرسب فى الامتحان ، فعليك أن تستقبل هذه المصيبة بالرِّضا ، فالرسوب يُعدِّل لك خطأك ، ويلفتك إلى ما كان منك من إهمال حتى تتدارك الأمر وتجتهد .

فإنْ كانت المصيبة لا دَخْلَ لك فيها ، كالذى ذاكر واجتهد ، ومع ذلك لم يُوفَّق لمرض ألمَّ به ليلة الامتحان ، أو لعارض عرض له ، نقول : إياك أنْ تفصل المصيبة عن مُجريها وفاعلها ، بل تأمَّل ما يعقبها من الخير ، ولا تفصل المصيبة عن مُجريها عليك ولا تقنط .

وابحث عن حكمة ربك من إنزال هذه المصيبة بك ، كالأم التى تقول لابنها : يا بُنى أنت دائماً متفوق والناس تحسدك على تفوقك ، فلعل رسوبك يصرف عنك حسدهم ، ويُنجيك من أعينهم ، فيكفوا عنك .

وحينما يأتى أبوه يقول له : يا بنى هَوِّن عليك ، فلعلَّك إنْ نجحت هذا العام لم تحصل على المجموع الذى تريده ، وهذه فرصة لتتقوى وتحصل على مجموع أعلى . إذن : لن تُعدم من وراء المصيبة نفعاً ، لأن ربك قيوم ، لا يريد لك إلا الخير .

لذلك حين تستقرىء الأحداث تجد أناساً فُضِحوا وأُخذوا بما لم يفعلوا ، وذهبوا ضحية شاهد زور ، أو قاضٍ حكم عن هوى .. إلخ لكن لأن ربك قيوم لا يغفل يُعوِّض هذا المظلوم ويقول له : لقد أصبح

لك نقطة عندي في حسابك ، فأنت اتُّهِمْتَ ظلماً ، فلك عندي إذا ارتكبتَ جريمة أنْ أنجيك منها فلا تُعاقب بها ، وأنت يا من عَمَّيْتَ على العدالة ، وشهدتَ زوراً ، أو : أخذت ما ليس لك ، أو أفلتَّ من العقاب فسوف أُوقعك في جريمة لم تفعلها .

إذن : القنوط عند المصيبة لا محلَّ له ، ولو ربطتَ المصيبة بمجريها لعلمتَ أنه حكيم ، ولا بُدَّ أنْ تكون له حكمة قد تغيب عنك الآن ، لكن إذا أدرتَ المسألة في نفسك ، فسوف تصل إلى هذه الحكمة .

وحين ننظر إلى أسلوب الآية نجد فيه مفارقات عديدة ، ففي الكلام عن الرحمة قال ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الروم] فاستخدم أداة الشرط (إذا) .

أما في المصيبة فقال ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الروم] فاستخدم أداة الشرط (إنْ) . فلماذا عدلَ عن رتابة الأسلوب من إذا إلى إن ؟

قالوا : حين تقارن بين النعَم وبين المصائب التي تنزل بالإنسان في دنياه تجد أن النعم كثيرة والمصائب قليلة ، فنعم الله متوالية عليك في كل وقت لا تُعدُّ ولا تحصى ، أمّا المصائب فربما تُعَدُّ على الأصابع .

لذلك استخدم مع النعَم (إذا) الدالة على التحقيق ، ومع المصيبة استخدم (إنْ) الدالة على الشك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ [النصر] فاستعمل إذا لأنها تدلُّ على التحقيق وتُرجِّح حدوث النصر ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ .. ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة]

كمـا نـلحظ في أسلوب الآية أنهـا لم تذكـر السـبب في إذاقـة الرحمـة ، إنما ذكرتْ سـبب المصـيبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] ليدلَّ على عـدله تعالى في إنزال المصـيبة ، وتفـضُّله في إذاقة الرحمة ؛ لأن الرحمة من الله والنِّعَم فضل من الله .

لكن في المصـيبة قال ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] فذكر العلَّة حتى لا يظن أحد أن الله تعالى يُجري المصـيبة على عبده ظلماً ، بل بما قدَّمَتْ يداه ، فالمسألة محكومة بالعدل الإلهي .

وبين الفـضل والعدل بوْن شـاسع ، فلو جـاءك خَصْـمان لتـحكم بينهمـا تقول : أحكم بينكمـا بالعدل ، أم بأفضل من العـدل ؟ يقول : وهل هناك أفضل من العدل ؟ إذن : نريد العـدل ، لكن تنبَّه لأن العدل يعطيك حقك ، والفضل يُترِكك[1] حقك .

فكأن الحق سـبـحـانه يقـول لنا : إياكم أنْ تظـنوا أنكم ناجـون بأعمالكم ، لا إنمـا بالتفضل عليكم : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

يعني : مهمـا جمعتُم من الطاعات فلن تـكفيكم ، ولا نجاةَ لكم إلا برحمة من الله وفضل .

فـالحق ـ تبـارك وتعـالى ـ يريد منا أن نـعـرف أن رحـمـة الله وسـعتْ كل شـيء ، وأنه مع مـا أنعم به عـليكم من نـعَم لا تُعَـدُّ

---

(١) وَتَرَه حقه وماله : نقصه إياه . وفي التنزيل العزيز : ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾ [محمد] . أي : لن ينقصكم من ثوابكم شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : وتر] . والمعنى المقصود أن الحكم بالعدل يعطي كلا المتخاصمين حقه ، أما الفضل فمن يحكم قد ينظر إلى فضيلة أحدهما وعلو همته وشرفه فينقص من حقه ، لأنه يعلم رجاحة عقله وقناعته وعفته . والله أعلم .

ولا تُحصى لا يُعاقبكم إلا بشيء اقترفتموه يستحق العقاب ؛ ذلك لأنه ربٌّ رحيم حكيم .

وما دام الأمر كذلك فانظر إلى آثار رحمة ربك في الكون ، وتأمل هذه النعَم ، وقفْ عند دقَّة الأسلوب في قوله سبحانه : ﴿ وإن تعدُّوا نعْمَتَ الله لا تحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

فالعَدُّ يقتضي الكثرة و ﴿ نعْمَتَ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] مفرد ، فكيف تعدُّ يا رب ؟ قالوا : نعم هي نعمة واحدة ، لكن في طياتها نِعَم فلو فتشتها لوجدتَ عناصر الخيرية فيها لا تُعَد ولا تُحصَى .

لذلك لما تعرضتْ الآيات لعَدِّ نعَم الله استخدمتْ (إنْ) الدالة على الشكِّ ؛ لأنها لا تقع تحت الحصر ولا العَدِّ ، لكن على فرض أنْ حاولت عدَّها فلن تُحصيها ، والآن ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص كليات بكاملها لدراسة علم الإحصاء ، وخرجوا علينا بإحصاءات لأمور ولأشياء كثيرة في حياتنا ، لكن لم يتعرض أحد لأنْ يُحصي نعمة الله ، لماذا ؟

لأن الإقبال على الإحصاء لا يكون إلا مع مظنَّة أنْ تُعدّ وتستوعب ما تحصيه ، فإنْ كان خارج نطاق استيعابك فلن تتعرض لإحصائه كما لم يتعرَّضْ أحد مثلاً لعَدِّ الرمال في الصحراء ؛ لذلك يُشككُكم الله في أنْ تعدُّوها ﴿ وإن تعدُّوا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] فهو أمر مُستبعد ، ولن يكون .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾